تقديم الكتاب

بقلم الشيخ / أحمد الجوهري عبد الجواد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله سبحانه وتعالى وبحمده، وصلاة وسلامًا على رسوله، ورضوانًا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم، وبعد..

فالعقيدة في الإسلام عقيدة حيَّة، عقيدة بانِيَة، عقيدة فاعِلة، ليست ألفاظًا خالية من المعاني، وليست معاني مقطوعة عن الأثر والنتيجة، بل تحت كل لفظ فيها معنى أو معانٍ عظيمة متعدِّدة متنوِّعة، ويترتَّب على كل معنى منها أثر ومنهج قابل للتطبيق، وهذا الأثر نافع مفيد، يطهِّر ويزكّي وينمِّي، ويهدي ويُرشد ويُوجِّه ويغيِّر معالم الحياة للأفضل، وهذا ظاهر فيها، ومَن يتأملها يجد ذلك واضحًا في جميع أجزائها من السطر الأول إلى السطر الأخير.

ولنتأمل السطر الأول- وحسبنا به من دليل-: يطلق العلماء على هذا العِلم المبارك أسماء: «العقيدة، والإيمان، والتوحيد»، وهذه الأسماء الثلاثة هي الأشهر، ثم تأتي بعدها أسماء: «السنة، والشريعة، وأصول الدين، والفقه الأكبر»، وهذه الأربعة هي الأقل شهرةً.

وتظهر هذه الأسماء جليَّة من خلال قراءة عناوين المؤلَّفات التي صنَّفها العلماء في هذا العِلم الجليل:

- فمؤلفات مثل: «بيان عقيدة أهل السنة والجماعة» للطحاوي، و«شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي، و«عقيدة السلف أصحاب الحديث» للصابوني، و«الاعتقاد» لابن أبي يعلى، و«لمعة الاعتقاد» لابن قدامة، وغيرها، اعتمدت اسم (العقيدة).

ومؤلفات مثل: «الإيمان» لأبي عبيد، و«الإيمان» لابن أبي شيبة، و«الإيمان» للعدني، و«الإيمان» لابن منده، و«مسائل الإيمان» لأبي يعلى، و«الإيمان الكبير» و«الإيمان الأوسط» لابن تيمية، وغيرها، اعتمدت اسم (الإيمان).

ومؤلفات مثل: «التوحيد وإثبات صفات الرب» لابن خزيمة، و«التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد» لابن منده، و«الأربعون في دلائل التوحيد» للهروي، و«التوحيد لله عز وجل» لعبد الغني المقدسي، و«التوحيد» لابن رجب، و«تجريد التوحيد المفيد» وكلاهما للمقريزي، اعتمدت اسم (التوحيد).

وكتب مثل: «السنة» لأحمد بن حنبل، و«السنة» لابن أبي عاصم، و«الإبانة عن أصول الديانة» لأبي الحسن الأشعري، و«الشريعة» للآجري، و«الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة»، و«الشرح والإبانة عن أصول الديانة» وكلاهما لابن بطة، اعتمدت بقية الأسماء المتقدمة، كما هو واضح في الجميع.

وهذه الأسماء كلها- على اختلافها- يجمع مسمَّياتها ومضمونها هذان الأمران العظيمان:

* بثُّ علم العقيدة وتحقيقه.

* الدلالة على وجوب توظيفه في الحياة.

فالعقيدة- كما يعرِّفها أئمة هذا العلم-: «جزم القلب وعقده على توحيد الله تعالى وما وجب الإيمان به من دون شك»، وهل بعد جزم القلب إلا سداد القول ورشاد العمل؟ فإن القلب هو الذي يغذِّيهما ويؤثر فيهما إنْ بالصلاح أو بالفساد. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

والقلب هو الملك والأعضاء جنوده، يأمرها بالخير أو بالشر فتجيبه إلى العمل به. قال أبو هريرة (رضي الله عنه): «القلب مَلِكٌ والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده».

والإيمان- كما يعرِّفه أئمة هذا العلم-: «التَّصديقُ الجازمُ بكلِّ ما أخبرَ به اللهُ ورسولُهُ مع الإقرارِ والطُّمأنينةِ، والقَبولُ والانقيادُ له»، وهل التصديق (وهو عمل الجنان)، والإقرار (وهو عمل اللسان)، والانقياد (وهو عمل الجوارح) إلا شمول الإيمان لجميع أحوال العبد من جهة الفكر، ومن جهة الذكر، ومن جهة العمل؟ إنه منهج حياة كامل، وفي الحديث: «الإيمان بضع وسبعون- أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، فأخبر ﷺ أن شعب الإيمان تتوزَّع بين هذه الجهات الثلاث. وبيان ذلك أن قول لا إله إلا الله يكون باللسان، وإماطة الأذى عن الطريق يكون بالجوارح، والحياء يكون في القلب، ومن قبل هذا قد حوى النصَّ على ذلك قولُه عزَّ مِن قائل: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. العصر ١-٣، فقد شملت قولَ القلب وعملَه، وقولَ اللسان، وعملَ الجوارح.

والتوحيد- كما يعرِّفه أئمة هذا العلم-: «إفراد الله سبحانه بما يختصُّ به من الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصفات»، وهذا معنى شامل لتوحيد الرب تعالى بأفعاله، وتوحيده سبحانه بأفعالنا، كما هو عامٌّ في تنزيه الرب سبحانه عن كل نقص، وإثبات كل كمال له، وفي أول الكتاب العزيز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. الفاتحة٢. فالحمد هو: إثبات كل كمال لله تعالى، والثناء عليه سبحانه به.

والله هو: المعبود بحق، والمحبوب الذي حارت العقول في حقيقته، والباقي المُحتاج إليه، الذي تسكن إليه القلوب، وتطرب القلوب بذكره، ويُولَع به مَن عرفه، ويُفزع إليه ومنه، والذي احتجب عن خلقه، والعالي على خلقه ذاتًا وقدرًا، والسيِّد.

والرب هو: الخالق، والمالك، والرازق، والمدبِّر، والمربِّي، والمصلح، والقائم، والسيِّد، والمعبود.

وهل هذا إلا عموم كل الأحوال؟!

وإذا كانت هذه أول آية في القرآن الكريم- بعد البسملة- فإن أول نداء وأول أمر فيه، جاء بنفس المعنى الذي أشير إليه أيضًا، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. البقرة ٢١، ففيه الحديث عن التوحيد، وجعل توحيد الربوبية منه برهان توحيد الألوهية.

هذه وقفة مع معاني الأسماء الثلاثة الأشهر لهذا العِلم، ويمكننا أن نستطرد مع بقية الأسماء: (السنة، والشريعة، وأصول الدين، والفقه الأكبر)، ونبيِّن تطابقها في الدَّلالة على المعنيَيْن الكبيرين: بث علم العقيدة وتحقيقه، والدَّلالة على وجوب توظيفه في الحياة، وليس مجرد العلم العقلي ومحض الثقافة الذهنية!

ومثل أول درس من دروس العقيدة في ذلك كل درس منها بعده، بداية من الحديث عن التعريفات وانتهاءً بالحديث عن الثمرات، كلها ألفاظ تحتها معان، وتنبني على تلك المعاني أعمال تنظم كل شؤون الحياة.

إن العقيدة التي تعمل على بث المعرفة في أتباعها ليقوم التصوُّر الصحيح بقلوبهم، ثم تبيِّن لهم كيفية توظيف هذه المعرفة في الحياة- جميع الحياة- في علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بالناس والأشياء من حوله، هي وحدها العقيدة التي تستحق أن تُوصف بهذه الصفات الثلاثة:

* عقيدة حيّة، وليست ميتة لا أثر له.
* عقيدة بانية، وليست هادمة أو معطِّلة عن البناء.
* عقيدة فاعلة، وليست عقيدة مطوَّعة يمكن أن تنفعل لكل غرض ومقصود.

إن عنوان الإسلام بمعناه الخاص، وهو: شريعة نبينا محمد ﷺ التي بُعث بها إلى أهل زمانه ومَن جاء بعدهم إلى قيام الساعة، وهذه الكلمة العظيمة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وهي أعظم ما يبيِّن ارتكاز العقيدة في الإسلام على هذين المعنيَيْن العظيمين، معنى المعرفة التامة المحققة، وتطبيق هذه المعرفة في الواقع لتكون منهج حياة للمسلم، فإن الشطر الأول منها، وهو: «لا إلا الله»، عبارة عن معنى التوحيد، والشطر الثاني منها، وهو: «محمد رسول الله»، عبارة عن كيفية

تطبيق هذا التوحيد، وقد جمعهما الله تعالى على سبيل الشرطية في النجاة والفلاح في قوله عز مِن قائل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. الكهف ١١٠، فاشترط أمرين:

* التوحيد.
* والاتِّباع.

ويبيِّن معنى هذين الشرطين الفضيل بن عياض في قوله: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، ثم قرأ الآية السابقة:﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. الكهف ١١٠.

وهكذا تظهر لنا هذه الثنائية (العلم والتطبيق) كذلك في عنوان الإسلام وكلمته الأولى، كلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص، وكلمة الإحسان، وكلمة النجاة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ونستطيع أن نلمس تلك الثنائية أيضًا في المفهوم الذي حرص النبي ﷺ على تقديمه لاسم الإسلام واسم المسلم، وحرص على تقديمه لاسم الإيمان واسم المؤمن، إذ عرَّف ذلك بطريقتين من التعريف:

* عرَّفهما مرة بالحقيقة والأركان والأجزاء.
* وعرَّفهما مرة أخرى بالآثار والنتائج المترتبة عليهما.

وبيان ذلك- بالأمثلة- كالتالي:

إن النبي ﷺ لمَّا جاءه جبريل (عليه السلام) وقال: أخبرني عن الإسلام؟ فقال له رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا»، وهذا تعريف بالمعنى الأول. وعندما تكلم النبي ﷺ عن المسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، وهذا تعريف بالمعنى الثاني.

ومثل هذا في تعريف الإيمان: لمَّا قال جبريل (عليه السلام): فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، وهذا تعريف بالمعنى الأول. ولمَّا تكلم ﷺ عن المؤمن قال: «المؤمن من أمِنَه الناس»، وهذا تعريف بالمعنى الثاني.

إن تعريفات الإسلام والإيمان والمسلم والمؤمن تشير إلى ضرورة الجمع بين العلم المحقق والعمل المطبَّق؛ ليستحق الإنسان هذه الأسماء العظيمة والآثار المترتِّبة عليها جميعها.

وبهذا - إن شاء الله - تتَّضح هذه الفكرة التي أودّ أن يعِيَها المسلمون جميعًا، فإنها مفتاح كل خير، والسبب إلى كل رشد، والطريق إلى كل هدى.

وإذا كانت بهذه المثابة، فإنني لن أزاحمها بغيرها من الأفكار في هذه المواضع وأكتفي بها، سائلًا الله تعالى أن أكون وضَّحتها كما ينبغي، وبيَّنتها على ما يُطلب.

◇◇

قرأت هذا الكتاب المبارك: «**غَرسِي.. غَرسُ الإيمان من الميلاد وحتى المَشيب**»، للكاتبة المربِّية **الدكتورة شيماء عبد التواب مشرف**، وسُررت كثيرًا بقراءته، وهو سِفر طيب تتحدَّث فيه عن عقيدة الإسلام: ضرورتها، ومادَّتها، ومقاصدها، وكيف نغرسها في أطفالنا.

وهو نافع مفيد للآباء والأمَّهات، والبنين والبنات، يرسم الطريق، ويوضح المراحل، ويحدد الأهداف، ويعين الغاية، وينبِّه على المشكلات، ويرصد المظاهر، ويعالج الخلل.

وقد اعتمدت المربِّية الفاضلة فيه على منهج سديد يتَّخذ الكتاب والسنة الصحيحة مصدرًا، مع استقراء للواقع يتخذ الوقائع والأحداث والاستشارات الأسرية والتساؤلات الواقعية والتربية العملية أساسًا، إضافة إلى توظيف للعلوم والمعارف الحديثة يُعدُّ مساعدًا قويًّا، فاكتملت لها- بارك الله مساعيها ونفع بعملها- أسس النظر السديد ووصف العلاج الرشيد.

وقد بدأت الكتاب بتساؤلات مهمة تثير الانتباه إلى أهمية الموضوع محل الدراسة، من مثل: لماذا أربي الأولاد؟ وما المعيار الذي به أعرف أني على الطريق القويم في ذلك؟ ولماذا أربيهم على التوحيد؟ وما الذي يفيدنا التوحيد في عملية التربية؟ وعلى من تقع مسؤولية التربية؟ إلى آخر هذه الأسئلة النافعة، وألحقت بها الأجوبة الخاصة بها، وهي أجوبة متقنة.

وبعد مقدمة عن الفطرة والطِّباع وما يستتبعانه من الكلام عن أنماط الشخصية وعن القلوب، تحدثت الأستاذة المؤدِّبة عن عقيدة الطفل في مراحل، هي: «من الميلاد حتى ثلاث سنوات، ومن ثلاث سنوات حتى خمس أو ست سنوات، ومن خمس أو ست سنوات إلى تسع سنوات، ومن تسع سنوات إلى عشر سنوات فما فوقها»، جاءت جميعها إجابة عن السؤال العظيم: كيف أربِّي الأولاد على العقيدة الصحيحة؟

والكتاب يتميز بعدة ميزات، منها:

١ العموم والشمول؛ فكل مرحلة من المراحل التي تحدث عنها فيها حدُّ الكفاية الذي تحتاجه السن المذكورة.

٢ الوضوح؛ فالمقاصد والأغراض والأهداف فيه ظاهرة.

٣ القرب؛ فالأسلوب الذي اتَّبعه مباشر، ويترقَّى من سن إلى السن التي فوقها من حيث الكَمِّية والكيفيَّة.

٤ ليسر؛ فالألفاظ فيه سهلة، والعبارات سلسلة.

٥ التقسيم الجيد؛ فالمراحل- وهي لُبُّ الكتاب- وما تحتوي عليه من فترات زمنية مقسَّمة قسمة واقعية.

٦ التنويع؛ ففي الإرشادات التي اشتمل عليها ما هو غذاء للقلب وما هو غذاء للعقل، ما هو مادة علمية وما هو مادة عملية، ما هو فكرة وما هو سلوك.

٧ المزج بين المادة العلمية والتجارب العملية؛ ففيه كثير من التجارب الشخصية للكاتبة الكريمة، أو لغيرها من الأمَّهات الفُضليات.

٨ التلخيص؛ فقد عمدت الكاتبة البصيرة إلى تلخيص كل مرحلة من هذه المراحل في نهاية السطور، تحت عنوان: «خلاصة تلك المرحلة».

٩ الواقعية؛ فالخطوات المذكورة وحلولها كلُّها واقعية يمكن تنفيذها بغير كلفة أو تكلُّف.

١٠ الوفاء بعناصر الموضوع محل الحديث؛ ففي عبادة مثل التفكُّر تذكر الكاتبة الكريمة أهميتها، وفائدتها، وثمرتها، ومجالاتها، وأفكارًا تساعد عليها، ونماذج عليها في النفس والآفاق، وغير ذلك من لوازم القيام بهذه العبادة.

وفي الكتاب ميزات أخرى غير هذه التي ذكرتها كثيرة، أكتفي منها بهذه العشر، ممتثلًا القول العربي السائر: «حَسْبُك من القلادة ما أحاط بالعنق»، وهو يُضرب في الاكتفاء من الشيء بما تتم به الحاجة.

أسأل الله أن يبصِّر المؤدِّبين والمتأدِّبين منه بما اطَّلعت عليه ورأيته فيه، وأن يكتب له القبول ولمؤلفته وناشره الأجر.

◇◇

وقبل أن أضع القلم أحب أن أنوِّه إلى عدة أمور في نقاط يسيرة موجزة:

الأول: العقيدة الإسلامية سهلة يسيرة مختصرة قريبة موجزة، والحرص على أن تبقى كذلك مطلوب، فإنه متى صعُبت وتعقَّدت وتوسَّعت وطالت انصرف الناس عنها، وكان من يفعل ذلك سببًا في الصدِّ عن سبيل الله؛ فيضر من حيث يريد النفع، ويفسد من حيث يريد الإصلاح.

الثاني: العقيدة الإسلامية تاريخ وحاضر، والنصوص الشرعية خادمة لهما معًا، فقَصْر عطاء النص الشرعي أو قصر الحوار حوله على التاريخ، من دون التعرُّض لحل المشكلات الطارئة، في الواقع نقصٌ ينبغي أن ينزِّه عنه المسلمون دينَهم.

ومعنى ذلك أنه يجب أن نجيب عن مشكلات الزمان والمكان من خلال العقيدة، فكما نقول- وهذا حق -: العقيدة تؤسِّس لدى الفرد الإيمان الكافي لنجاته من النار ودخول الجنة، ثم ترقيه في درجاتها، فينبغي أن نقول أيضًا إنها تهديه إلى العمل والتفاعل مع ما حوله من حي وجماد، ومع ما يأتيه من غيب وشهادة، وأن نمارس

هذا عمليًّا، بإيجاد الحلول للمشكلات الموجودة، وطرح العلاج للأمراض العقدية المنتشرة، بل- قبل ذلك- يجب علينا اقتراح المحاضن الواقية من هذه المشكلات، والحصون الدافعة لهذه الأمراض قبل وقوعها.

الثالث: العقيدة الإسلامية شيء، وعلم العقيدة الإسلامية شيء آخر؛ فالعقيدة يمكن للرجل والمرأة الأميَّين تعلُّمها، مثلما يمكن للشاب والفتاة والصبي والصبية؛ لأنها- كما قدَّمت- سهلة مختصرة، بخلاف علم العقيدة، فهذا شيء واسع الأطراف، ممتد الجوانب، عميق التناول، يحتاج إلى فئة خاصة، واستعدادات محدَّدة، ووقت وظروف مناسبة.

فلا ينبغي أن نخلط بينهما، وينبغي أن نفْصِل المسائل المتعلقة بالعقيدة عن تلك المتعلقة بعلمها عندما نلقيها إلى عامَّة الناس؛ لئلَّا نشوش عليهم إيمانهم، ونصَدِّر لهم المشكلات من حيث لا ندري، أو نحملِّهم ما هو فوق طاقتهم وخارج وسعهم، ممَّا لم يكلفهم الله تعالى إياه.

وإذا كنا نؤكِّد على هذا في مسألة ما يلقى على العامَّة، وقد يتم بناء على تفكير وتدبُّر وتمهل وأناة، فماذا نقول في إجراء المناظرات، ونشر الحوارات فيهم أو على مرأى ومسمع منهم، والجدل حولها عندهم؟ لا ريب أن هذا منكَر، وقد انتبه لخطره هداة الأمة ونبَّهوا عليه. قال ابن مسعود (رضي الله عنه): «ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». وقال علي (رضي الله عنه): «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبُّون أن يُكَذَّب الله ورسوله»؟

الرابع: العقيدة الإسلامية منطقة ثوابت ومرتكزات، ومحلُّ محكمات وقطعيات، والمناسب لهذا أن تكون محل اتفاق لا محل اختلاف، وأن تكون منطقة التقاء واجتماع لا منطقة تشرذم وافتراق، وإذا لم يتفق المسلمون- وبالأخص أهل السنة منهم- على ما كان هذا شأنه، فعلى أي شيء يمكنهم الاتفاق بعده؟!

ومن ثم وجب على المعتنين التفكيرُ في البواعث التي تكتنف هذا الخلاف من أجل إدراكها، ثم في العوامل التي تساعد على رفعها من أجل إيجادها.

هذا غيض من فيض، لا يغيب هو ومثله عن المعتني بعلوم ديننا وهموم أمتنا، أسأل

الله أن يجعلنا منهم، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لكتاب الله، ولنبيه، ولأئمة المسلمين».

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، وانصر الإسلام وأعزَّ المسلمين، وأعل بفضلك كلمة الحق والدين، وارفع راية الإسلام عالية خفاقة في كل شبر من أرض المعمورة، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وصلَّى الله وسلم على نبينا وآله وصحبه ومن تبع نهجه، والحمد لله رب العالمين.

أحمد الجوهري عبد الجواد

شيخ أزهريّ، مصنّف و محقّق، يدرس علوم الشريعة،

و مدير معهد في الأزهر الشريف سابقًا،

نُشر له ٣٠ كتابًا بين تأليف و تحقيق،

ترجم بعضها .